إهـــــــــداء

إلى من استفدت منهم كثيراً فى الطرح والتنظير بجامعة عين شمس العريقة.

إلى من كتب لهم الخلود فى الوسط العلمى بأخلاقهم وتراثهم النفيس.

إلى ثلة من رواد التاريخ الإسلامى والوسيط بمصر والعالم العربى.

إلى العلماء الأجلاء والمؤرخين الأفذاذ المغفور لهم بإذن الله.

الأستاذ الدكتور أحمد رمضان أحمد.

الأستاذ الدكتور عبدالمنعم ماجد.

الأستاذ الدكتور رأفت عبدالحميد.

الأستاذ الدكتور حسن حبشى.

وفاءً..... وعرفاناً

obeikandi.com

obeikandl.com

مقـــــــدمة

انشغلت بالنوازل وكتب الفقه والأحكام منذ تسعينيات القرن المنصرم، - وتحديداً مع أطروحتنا للماجستير والتى كانت عن ابن حزم الظاهرى ذلكم العالم الموسوعى متعدد المواهب والثقافات -، ووقتها كان استخدام النوازل فى التدوين التاريخى أمراً غاية فى الصعوبة، إذ لم تكن قواعده قد قُعدت بعد، ومن ثم فلا غرو أن بعض الأساتذة وقتها كانوا يجدون صعوبة فى استخدام النوازل فى التدوين التاريخى، بل كانوا يحذرون تلاميذهم من البعد عن الموضوعات التى تمسها النوازل من قريب أو بعيد.

على أية حال لقد وجدنا عوناً من أساتذتنا بجامعة عين شمس العريقة وفى مقدمتهم العلامة الكبير الأستاذ الدكتور محمود إسماعيل متعه الله بالصحة والعافية، والعالم الجليل الأستاذ الدكتور أحمد رمضان أحمد رحمه الله، فضلاً عن بعض أصحابنا فى حقل التاريخ الإسلامى، ومن ثم دلفنا إلى عالم النوازل وعولنا عليها كمصدر رئيس فى أطروحتنا للماجستير، ثم فى أطروحة الدكتوراة، وكانت حول الظاهرية والمالكية بالمغرب والأندلس فى عهد الموحدين، وكان لنجاحنا فى هذه التجربة بشهادة أساتذتنا وأصحابنا أثر كبير فى مواصلة المسير فى هذا الطريق الشائك، والذى بدأ باستخدام النوازل فى التدوين التاريخى، وانتهى بنا إلى توظيف العلوم البينية فى دراساتنا التاريخية، والتنبيه على أهميتها فى جل فروع التاريخ.

كان لابن حزم أثر كبير علينا من البداية فى الاتجاه نحو العلوم البينية أو المساعدة والاستفادة منها فى طروحاتنا التاريخية، لا سيما وأن ابن حزم كان فقيهاً وأصولياً ومحدثاً ومفسراً ومتكلماً وشاعراً وأديباً وفيلسوفاً ومؤرخاً وطبيباً.... إلخ، واستطاع أن يقدم أفكاراً جديدة فى كل علم من العلوم التى حصلها وبز فيها، بل ونجح فى التقريب بينها، واستخدام بعضها فى الكشف عن مشكلات البعض الآخر، وتقديم الحلول لها من خلال مجموعة متعددة من المناهج، وصار الأمر أكثر وضوحاً فى التاريخ الذى برع ابن حزم أيما براعة فى تدوينه – رغم قلة إنتاجه فيه- مستخدما مناهج المحدثين والفلاسفة والمتكلمين حال تدوينه.

ولعل تأثير ابن حزم علينا قد جلاه أستاذنا الدكتور محمود إسماعيل عندما قال لنا حال مناقشته إياى:"لقد استفدت من ابن حزم كثيراً، وربما أكثر مما أفدتنا... لقد عاركت عملاقا كبيراً، ونجحت فى عراكك، وخرجت منه بفوائد كثيرة".

لا يمكننى أن أنكر أننى أصبحت فى وقت من الأوقات أسير فكر ابن حزم، أكتب بأسلوبه أحياناً، وأحاول أن أحاكيه فى ردوده، وتحصيله للعلم، وتنوع ثقافته، لدرجة أننى حاولت أن أنظم الشعر – رغم استشعارى صعوبة ذلك – لأنه كان شاعراً ويكتب الشعر على السليقة، وأقبلت على دراسة الجغرافيا والاستفادة منها لأنها كانت أحد مصادره المعرفية، وأقبلت على دراسة مقارنة الأديان والجدل وعلم الكلام والفقه والحديث والمعتقد والتفسير والبلاغة وخلافه كل ذلك لأجل أن ابن حزم كان بارعاً فى هذه العلوم، ومن ثم ساعدته على أن يقدم مشروعه الطموح لإقالة الأندلس من عثرتها، الأمر الذى جذبنى إليه وإلى فكره محاولاً أن أحاكيه ولو فى بعض ما حققه من إنجازات فى شتى العلوم.

لكل ما سبق اتجهت لكتابة التاريخ بآلية ترتكز على الموضوعات الفكرية والمذهبية والعقدية، وهو ما حاولت إبرازه فى هذه الدراسة، والتى هى فى حقيقتها مجموعة من الأبحاث والدراسات التى تقدمت بها لمؤتمرات دولية، وسمنارات علمية، فالفصل الأول وعنوانه: النوازل مصدراً ضافياً لتاريخ المهمشين بالأندلس، تقدمت به لمؤتمر المهمشين الدولى الذى أعده قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة، نوفمبر 2015م، والفصل الثانى وعنوانه: سمات وخصائص العمران فى كتب النوازل والأحكام، أعددته لأحد المؤتمرات الجزائرية الدولية، والفصل الثالث وعنوانه: الفرق الإسلامية فى الأندلس فى عصر الخلافة، وكذا الفصل الخامس وعنوانه: المذهب الظاهرى نشأته وتطوره بالأندلس حتى سقوط غرناطة شاركت بهما فى سمنار التاريخ الإسلامى والوسيط بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية ضمن الموسمين الثقافيين 2012م، 2015م، وإن كنت قد زدت فى بحث المذهب الظاهرى الفترة حتى سقوط غرناطة.

وأما الفصل الرابع: وعنوانه المذهب المالكى بالأندلس نشأته وتطوره حتى سقوط غرناطة، فدعتنا إليه الضرورة، إذ لا يمكن لكتاب يتحدث عن الفكر والتاريخ والمذاهب بالأندلس أن يغفل الحديث عن المذهب المالكى، – أحد أهم المذاهب الإسلامية سطوة

وسيطرة بالمغرب والأندلس عبر تاريخها الطويل باستثناء عصر الموحدين- لا سيما وقد تم الحديث عن المذهب الظاهرى.

وأما الفصل السادس وعنوانه: الصراعات الفكرية بين الظاهرية والمالكية بالأندلس فى عهد الموحدين، والسابع وعنوانه: ابن رشد الحفيد وأثره فى المجتمع الأندلسى، فقد شاركت بهما فى سمنار قسم التاريخ بكلية التربية جامعة عين شمس ضمن الموسمين الثقافيين 2015، 2016م، وأخيراً يأتى الفصل الثامن وعنوانه: أجناس الكتابة التاريخية عند أبى الحسن البناهى الجذامى، والذى شاركت به فى مؤتمر الحضارة الأندلسية الدولى بمكتبة الإسكندرية نوفمبر 2016م.

الجدير بالذكر أننى كنت أطمح أن أنشر كتاباً منفصلاً عن النوازل وأهميتها فى التدوين التاريخى، وكتاباً ثانياً عن المذهب الظاهرى فى الأندلس، وكتاباً ثالثاً عن الصراعات الفكرية بين الظاهرية والمالكية بالأندلس فى عهد الموحدين، وكتاباً رابعاً عن ابن رشد الحفيد وأثره فى المجتمع الأندلسى، وكتاباً خامساً عن المذهب المالكى فى الأندلس، وبدأت بالفعل فى تنفيذ ذلك، وجمعت مادة علمية ضافية لكل موضوع، إلا أن المشاغل، وضيق الوقت دفعانى للتفكير فى نشر هذه الأبحاث ضمن دراسة تكون نواة لمشروع علمى أستكمل فيه ما أطمح إليه على مهلٍ من ناحية، ومن ناحية أخرى أردت تلبية رغبة بعض طلاب الدراسات العليا بالجامعات المصرية الذين ألحوا علينا بضرورة نشر هذه الأبحاث، والإسراع فى ذلك، وأخيراً كان انشغالى بإبراز دور العلوم البينية المختلفة فى تدوين التاريخ، ومن جملتها الفقه كأساس تقوم عليه الفتوى أو النازلة أحد أسباب نشر هذا الكتاب.

لقد حاولت جاهداً أن أربط بين هذه الأبحاث برباط يوحد بينها، ويجمع شتاتها، فقلت فى نفسى هذه الدراسات كلها فى تاريخ الأندلس، وكلها تعالج قضايا فكرية ومذهبية، ومن ثم وقع اختيار العنوان على النحو التالى:"دراسات أندلسية.. فى الفكر والتاريخ والمذاهب".

وجاء الفصل الأول ليعالج قضية فقهية فكرية فى آن واحد، ويكشف لنا حقيقة مفادها أن كتب النوازل من أهم وأخطر المصادر التي تسد كثيرا من ثغرات التاريخ، وتفتح آفاقاً جديدة أمام الباحثين لمعالجة قضايا جديدة شكلاً ومضموناً؛ وكيف لا وقد اصطلح أحد

المشاهير على توصيفها بأنها:"كرش المجتمع"لما تحويه من معلومات ضافية ربما لا يوجد لها ذكر فى المصادر التقليدية المشهورة.

ففى كتب النوازل وجدنا ذكراً لشريحة طالما غفل عنها المؤرخون وهى شريحة الفقراء. كيف كانت تحيا وتعيش وتلبى طموحاتها كأحد فئات المجتمع الأندلسى ؟، وما هو موقف الأغنياء من هذه الشريحة ؟. كما أوضحت لنا الحالة التى كان عليها الفلاحون والمزارعون بالأندلس فى فترات متباينة حيث اضطرتهم الضرائب – التى عرفت بالقطيع أحياناً وبالمعونة تارة أخرى– إلى زيادة وضعيتهم سوءً إلى حالة السوأ التى كانوا عليها. كذلك أعطتنا النوازل صورة واضحة عن بعض المهن المهمشة التى مارستها المرأة الأندلسية. كما وجدنا وثائق تتعلق بوضعية وأفعال أصحاب المهن المهمشة بالسوق.

كذلك أفادتنا كتب النوازل بذكر بعض البنائين الذين لعبوا دورا مهما فى عمارة الأندلس من أمثال أحمد ابن باسة، وابن الليثي الصقلي، والحاج يعيش المالقى.

وبشأن شريحة الأيتام فقد أفصحت كتب النوازل عن بعض الحوادث الخاصة بالأيتام فى العهد المرابطى كرهن بعض ما يملكونه مقابل الاستدانة للحاجة والفاقة، ودور الوصى على الأيتام فى رعاية حقوقهم لا سيما فى حالة انفاض القوة الشرائية وانتشار البيع بالغبن.

كما أفاضت كتب النوازل عن العبيد، وما شاب بعضهم من عيوب، والشروط اللازمة لبيعهم، وكيفية زواجهم، وما وقع عليهم من معاملة قاسية من أسيادهم، مما دفعهم إلى الهروب واحتراف اللصوصية وقطع الطرق والانخراط فى الثورات طلبا للرزق، بل إن بعضهم آثر اللحاق بدار الحرب فكاكا لنفسه من الحبس والاضطهاد.

كذلك أطلعتنا كتب النوازل على ما يمكن أن نسميه بالتهميش المذهبى إذ لفتت نظرنا إلى حالة الإقصاء التى تعرض لها من يتمذهب بمذهب ابن حزم الظاهرى بالأندلس أو غيره لحساب المذهب المالكى فى عصر المرابطين. كما حوت كتب النوازل معلومات مهمة وضافية عن المهمشين بشتى أصنافهم.

وجاء الفصل الثانى قريباً فى تكوينه من الفصل الأول فمن خلال مطالعة كتب النوازل والأحكام تبين أنها تحتوى على صور معبرة عن خصائص وسمات العمران الإسلامى، حيث اشترط الفقهاء شروطاً بعينها للبناء والتعمير طبقت فعلياً على أرض الواقع فوجدنا مراعاة

لسلامة وصلاحية البناء والطرق، واحترام الفضاء والخصوصيات، ودفع كل ما يضر بالمدينة والقاطنين فيها من أذى وضرر، ومراعاة الشروط الصحية في العمران، والحفاظ على الجنان والنباتات والمجال الأخضر بما يكفل حياة تدخل السرور على النفس البشرية.

وتناول الفصل الثالث موضوعاً عقدياً تمت معالجته بطريقة فكرية، وكان الهدف منه إبراز الأثر الفكرى للفرق الإسلامية فى المجتمع الأندلسى من خلال حوارات أتباعها مع مخالفيهم وكذا الردود التى وقعت بينهم وبين المالكية وغيرهم. فضلا عن تحقيق التنوع الثقافى من خلال طرح أفكار جديدة فقهياً وعقدياً تضاف للتراث المتعارف عليه عند المالكية وغيرهم من أهل السنة، وأخيراً إظهار الدور السياسى لأتباع الفرق الإسلامية والذى تمثل فى نجاح بعض الأفراد فى تكوين ما يمكن أن نصطلح على تسميته بالكيانات، وموقف النظام الحاكم تجاه ذلك.

واستعرض الفصل الرابع من هذه الدراسة نشأة المذهب المالكى، ودوافع إقبال أهل الأندلس عليه، واتخاذه مذهباً رسميا طيلة تاريخ الأندلس الطويل باستثناء دولة الموحدين.

وعالج الفصل الخامس نشأة المذهب الظاهرى بالأندلس منذ بزوغ نجمه فى القرن الثالث الهجرى وجهود منذر بن سعيد البلوطى فى نشره فى عصر الخلافة، وكذا جهود ابن حزم فى عصرى الخلافة وملوك الطوائف، ثم المذهب فى عصر المرابطين، ثم فى عصر الموحدين تلكم الدولة التى اتخذته مذهباً رسميا ومكنت له أيما تمكين، ثم الحديث عن المذهب فى إمارة غرناطة.

واختص الفصل السادس بقضية فكرية شائكة وهى: الصراعات الفكرية بين الظاهرية والمالكية بالأندلس فى عهد الموحدين.

واهتم الفصل السابع بشخصية من أعظم شخصيات التاريخ الأندلسى خاصة، والإنسانى عامة، وهو ابن رشد الحفيد القاضى والفقيه والفيلسوف والطبيب، حيث تم تجلية أثره فى المجتمع الأندلسى.

وعالج الفصل الثامن موضوعاً يخص الفكر التاريخى بالأندلس، وهو أجناس الكتابة التاريخية عند أبى الحسن البناهى الجذامى أحد أعلام غرناطة فى عصر بنى نصر.

وأخيراً آمل أن أكون قد قدمت رؤية جديدة من خلال موضوعات هذه الدراسة، وأتمنى أن تنال إعجاب الباحثين والقراء والنخب المثقفة المتابعة بنهم لكل ما يصدر عن

الفكر الأندلسى من دراسات وأبحاث، وأن تكون لبنة جديدة تضاف إلى المكتبة العربية والإسلامية بعامة، وإلى المكتبة الأندلسية خاصة، والله الموفق والمستعان.

دكتور

عبدالباقى السيد عبدالهادى

openkandl.com